تفسير إبن كثير

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه االله] أتباعه ، بعدما قضى االله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس - لعنه االله - حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغبنا إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : (إن االله وعدكم وعد الحق) أي : على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعدا حقا ، وخبرا صدقا ، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ، كما قال االله تعالى : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) [النساء : 120] .ثم قال : (وما كان لي عليكم من سلطان) أي : ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ، (إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت

عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ، (فلا تلوموني) اليوم ، (ولوموا أنفسكم) فإن الذنب لكم ، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ، (ما أنا بمصرخكم) أي : بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ، (وما أنتم بمصرخي) أي : بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ، (إني كفرت بما أشركتمون من قبل)قال قتادة : أي بسبب ما أشركتمون من قبل .وقال ابن جرير : يقول : إني جحدت أن أكون شريكا الله ، عز وجل .وهذا الذي قاله هو الراجح كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون االله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) [الأحقاف : 5 ، 6] ، وقال : (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) [مريم : 82] .وقوله : (إن الظالمين) أي : في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل) لهم عذاب أليم)والظاهر من سياق الآية : أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار ، كما قدمنا . ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم - وهذا لفظه - وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثني دخين الحجري ،

عن عقبة بن عامر ، عن رسول االله صلى االله عليه وسلم أنه قال : " إذا جمع االله الأولين والآخرين ، فقضى بينهم ، ففرغ من القضاء ، قال المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا ، فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم - وذكر نوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى - فيقول عيسى : أدلكم على النبي الأمي . فيأتوني ، فيأذن االله لي أن أقوم إليه فيثور [من] مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط ، حتى آتي ربي فيشفعني ، ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ، ثم يقول الكافرون هذا : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا . فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظم نحيبهم (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن االله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) .وهذا سياق ابن أبي حاتم ، ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن دخين عن عقبة ، به مرفوعا .وقال محمد بن كعب القرظي ، رحمه االله : لما قال أهل النار : (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا

ما لنا من محيص) قال لهم إبليس : (إن االله وعدكم وعد الحق) الآية ، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم ، فنودوا : (لمقت االله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) [غافر : 10] .وقال عامر الشعبي : يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس ، يقول االله لعيسى ابن مريم : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون االله) إلى قوله : (قال االله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) [المائدة : 116 ، 119] ، قال : ويقوم إبليس - لعنه االله - فيقول : (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) الآية .